جامعة عين شمس
كلية الآداب
قسم اللغة العربية

المنظومة السياسية والاجتماعية في السير الشعبية

الزير سالم وعلي الزيبق نموذجًا

The Socio-political system in the Folk-Siras

Al-Zeer Salem & Aly Al-zaybaq: A case study example

إعداد الطالب

هشام عبد العزيز محمود

إشراف

أ.د ثناء أنس الوجود (رحمها الله)

أ.د إبراهيم عبد الحافظ (رحمه الله)

أ. د محمـــــــــد يـــــــونس

أ.د خالـــــــــــد أبـــــو الليـــــل

جامعة عين شمس
كلية الآداب
قسم اللغة العربية

المنظومة السياسية والاجتماعية في السير الشعبية

الزير سالم وعلي الزيبق نموذجًا

The Socio-political system in the Folk-Siras

Al-Zeer Salem & Aly Al-zaybaq: A case study example

إعداد الطالب

هشام عبد العزيز محمود

لجنة المناقشة والحكم

أ.د أحمد شمس الدين الحجاجي	**مقرراً ومناقشاً**
أ.د محمـــــــد يونـــــس	**مشرفـــــــاً**
أ.د خالـــــد أبـــو الليـــل	**مشرفاً مشاركاً**
أ.د مصطفـــــى جـــاد شعبان	**مناقشـــــــاً**

تقديم

تقع هذه الدراسة ضمن ما يسميه المتخصصون في فلسفة العلوم «البحوث متجاذبة الاختصاص»، أو «الدراسات البينية» وهي مساحة في العلوم الإنسانية شديدة الأهمية والتعقيد في آن؛ حيث إنها تخضع لشروط علمية من علمين مختلفين على الأقل، وربما أكثر من ذلك. من خلالها تتم الاستفادة من التقارب أو قل التلاقح المنهجي الذي يمكن أن يؤسس ما يسمى في مثل حالتنا هذه «علم الفولكلور السياسي». مما يعد إضافة معرفية إذا ما تمت دراسة المادة الفولكلورية باعتبارها أحد الأوعية غير التقليدية الحاملة للوعي السياسي العربي.

والباحث هنا يرى موضوعه في نقطة متجاذبة الاختصاص على أكثر من مستوى، أولها ما يتصل بعلم الفولكلور من ناحية، وعلم السياسة من ناحية ثانية، وعلم الاجتماع من ناحية ثالثة. وثانيها ما يتصل بالأدب من ناحية وعلوم الاجتماع والسياسة من ناحية ثانية، وثالثها ما يتصل بعلوم الثقافة والدراسات الثقافية، والنقد الأدبي.

وفي مجال الأدب الشعبي كثير من الأوعية غير التقليدية الحاملة للوعي السياسي يمكن عند دراستها طبقا لأدوات وإجراءات منهجية مناسبة الوصول إلى نتائج معرفية مهمة وناجعة على المستوى السياسي والاجتماعي والاقتصادي وكذلك المعرفي. ومن هذه الأوعية كثير من أنواع الأدب الشعبي: السير الشعبية، والحكايات الشعبية، والشعر الشعبي، والأغاني الشعبية، والأمثال، والألغاز، والفكاهة، والتعابير والأقوال السائرة، ونداءات الباعة، والأدعية، والرقى والتعاويذ... إلخ. ولعل من نافلة القول إن كل مصدر من هذه المصادر السابقة يحتاج لأدوات منهجية خاصة تصلح معها وقد لا تصلح مع غيرها على الرغم من الاتفاق فيما بينها جميعا. وقد يحتاج الدارس أيضًا إلى إلمام بمجموعة أخرى من العلوم مثل الأنثروبولوجيا والاقتصاد حسب طبيعة الدراسة التي يعمل عليها.

مصادر الدراسة

يشير الباحث هنا إلى الرواية الشفاهية القصيرة التي جمعها من الفيوم ونسخ الطبعات التي اعتمد عليها في دراسته، وهي كالتالي:

أولا: رواية الحاج عبد العال عبد الحميد سلومة

وهي رواية قصيرة نسبيًا (٢٥ دقيقة). وقد جمعها الباحث عام ٢٠٠٥، من الحاج عبد العال، وهو من سكان عزبة علي عوض، إحدى قرى ناحية الغرق التابعة لمركز إطسا بمحافظة الفيوم.

ويجدر بالباحث هنا الإشارة إلى عدة ملاحظات يراها مهمة، هي:

١- كانت عملية الجمع ضمن مشروع لجمع وتوثيق روايات السيرة الهلالية بإشراف الجمعية المصرية للمأثورات الشعبية، وبتمويل من منظمة الثقافة والآداب والعلوم (اليونسكو). وكان ذلك عام ٢٠٠٥. وعلى هامش هذا المشروع كان الباحث ومشاركوه من الباحثين يجمعون ما يتوفر لهم من روايات أخرى، وهذه الرواية كانت إحدى هذه الروايات الجانبية.

٢- كان العمل في هذا المشروع ينقسم إلى مجموعات عمل. وقد كانت مجموعة العمل التي شاركت الباحث تشمل الباحث مسعود شومان، والباحث عادل العدوي. والباحث محمود غيضان.

٣- يوم جمع هذه الرواية شاركني في عملية الجمع الباحث محمود غيضان.

٤- تمت عملية الجمع ليلا بعد صلاة العشاء في منزل الحاج عبد العال.

٥- الحاج عبد العال متزوج وليس لديه أبناء وهو رقيق الحال.

٦- **بيانات المادة الميدانية:** مكان الجمع : منزل الراوي بعزبة علي عوض. يوم ٤-٦-٢٠٠٥. مدة التسجيل: ٢٥ دقيقة.

٧- **بيانات السياق:** وقت الجمع: من التاسعة وحتى الحادية عشرة ليلا. في منزل ريفي بسيط

٨- **أدوات الجمع:**

- جهاز Camera digital jvc
- جهاز voice recording من نوع creative labs. Inc. model no dap-md0003
- جهاز الكمبيوتر: acer lap top
- بيانات الجامعين: هشام عبد العزيز – محمود غيضان

ثانيًا: الزير سالم

١- على الغلاف الخارجي: قصة الزير سالم أبو ليلة المهلهل الكبير.

وعلى الغلاف الداخلي: قصة الزير سالم الكبير (وفيه ما كان من كليب وحسان اليماني وجساس بن مرة وما وقع بينهم من الحروب والأهوال). تطلب من مكتبة الجمهورية المصرية لصاحبها عبد الفتاح عبد الحميد مراد، بشارع الصنادقية بجوار الأزهر بمصر.

وفي آخر صفحة من السيرة: تم بعون الملك الوهاب.

المطبعة اليوسفية بشارع محمد علي بمصر.

٢- قصة الزير سالم الكبرى – أبو ليلى المهلهل (صاحب الأشعار البديعة والوقائع المهولة المريعة وحربه مع البسوس وما جرى له في تلك الأيام مع ملوك التتابعة وفرسان الصدام من الحروب والوقائع التي تطرب القارئ وتلذ السامع.

روجعت هذه الطبعة على النسخة الأصلية.

ملتزم الطبع والنشر: عبد الحميد أحمد حنفي، بشارع المشهد الحسيني رقم ١٨.

المراسلات: مصر – صندوق بوستة الغورية رقم ١٣٧.

شركة مطبعة الجمالية الحديثة.

وفي الصفحة الأخيرة: تمت قصة الزير أبو ليلى المهلهل بعون الله.

ثالثًا: علي الزيبق

١- سيرة علي الزيبق (طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب – عن سلسلة السير الشعبية العربية. تقديم خيري عبد الجواد. وقد اعتمدت هذه الطبعة على طبعة أقدم، هي:

سيرة العايق الشاطر المقدم علي الزيبق المصري ابن المقدم حسن راس الغول صاحب الملاعيب المشهورة، وما جرى له مع المقدم صلاح والمقدم أحمد الدنف وحسن الحايك وعلي الأقرع وحسن شومان وحسين زريق السماك والعايقة فاطمة الفيومية والدليلة المحتالة وبنتها زينب النصابة وما حصل بينهم من الملاعيب بالتمام والكمال والحمد لله على كل حال.

وفي أسفل صفحة الغلاف الخارجي (كما وصف خيري عبد الجواد في تقديمه) وبالبنط العريض:

التزام سعيد علي الخصوصي وولده عبد الخالق. أصحاب المكتبة السعيدية بجوار الأزهر الشريف. وقد طبعت بمطبعة الشباب الناهض بشارع عبد العزيز بحارة العشي – لصاحبها محمود شعبان.

وقد جاء على ظهر الغلاف الأول الداخلي:

وقفه للنادي النوبي المرحوم محمد عبده جاهين بك.

٢- سيرة علي الزيبق.. المخطوطة المصرية النادرة سنة ١٨٨٠. تقديم ودراسة د. محمد سيد عبد التواب. طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب – سلسلة الثقافة الشعبية. ٢٠١٦.

وقد أشار مقدم الطبعة إلى بيانات النسخة المطبوعة التي عثر عليها «مصادفة» بأنها «طبعت في مصر طبعة شعبية على ورق أصفر من القطع الجاير.. فرغ من طبعها بمطبعة السيد حسن العناني لعشرين خلت من رجب سنة ١٢٩٧هـ الموافق ١٨٨٠م. وقد جاء على صفحة الغلاف الخارجي: كتاب

قصة المقدم علي الزيبق الذي تفرد بالشطارة والعياقة على جميع من تقدم وسبق. تأليف الكامل الحافظ أحمد بن عبد الله المصري.. وتحت العنوان رسم متخيل لعلي الزيبق»[١]

والملاحظ من نوع الطباعة للطبعات السابقة (طباعة حجر) أنها من أوائل المطبوعات كما تصنفها جميعًا دار الكتب والوثائق القومية المصرية، أي أنها جميعًا من طبعات نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. ولعل من المفيد هنا أن صفات مثل «نسخة نادرة»، و«نسخة وحيدة»، و«أقدم نسخة»، التي يطلقها بعض الباحثين على النسخ التي يعثرون عليها لا تتسم بالدقة العلمية الكافية، فكلها طبعات متوافرة في دار الكتب المصرية في أوائل المطبوعات.

أهم الدراسات السابقة

١- الزير سالم بين السيرة والتاريخ والبناء الدرامي[٢]: ممدوح عدوان

وقد تعرض الكاتب في هذا الكتاب إلى بعض النواحي التاريخية التي تتصل بشخصية الزير سالم وبعض الأحداث التاريخية التي تتعلق بهذه الشخصية مثل حرب البسوس ومقتل كليب، ولكن الهدف الذي حكم الكتاب كله كيفية إسقاط هذه الأحداث على الأعمال الدرامية (التليفزيونية خاصة).

وظل هذا الهاجس هو الحاكم للكتاب ككل حتى وهو يتعرض لمناقشة طبيعة السير الشعبية.

٢- الشطار والعيارين.. حكايات في التراث العربي[٣]: د. محمد رجب النجار

---

(١) محمد سيد عبد التواب (تقديم): سيرة علي الزيبق. الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة الثقافة الشعبية، ص ص: ٩ – ١٠.

(٢) ممدوح عدوان: الزير سالم بين السيرة والتاريخ والبناء الدرامي. قدمس للنشر والتوزيع. لبنان. ٢٠٠٢.

(٣) محمد رجب النجار: الشطار والعيارين.. حكايات في التراث العربي. سلسلة عالم المعرفة. الكويت. سبتمبر ١٩٨١.

يدور هذا الكتاب حول ظاهرة الشطار والعيارين في التراث العربي، تلك الظاهرة التي جسدت الصراع بين الطبقات الحاكمة في العالم العربي الإسلامي من جهة وبعض الطبقات المهمشة سواء اقتصاديا أو اجتماعيا من جهة ثانية. والكتاب من هذه الزاوية يوفر تأصيلا رصينا لظاهرة مقاومة السلطات في التراث العربي التي بدأت بالصعاليك العرب ويمكن أن تكون ظاهرة جحا أو علي الزيبق من ضمن تجليات هذه الظاهرة بشكل أو بآخر.

بالإضافة إلى أن الكتاب يوفر جمعا مكتبيا مهما وتحليلا رصينًا لكثير من الروايات المهتمة بهذا الجانب في تراثنا العربي.

أهمية الدراسة

تعد زاوية النظر الجديدة التي تتيحها مثل هذه الأوعية غير التقليدية لدراسة الوعي الشعبي تجاه المنظومتين السياسية والاجتماعية، مؤشرا على أن الدراسات العربية أهملت إلى حد بعيد أولئك المعنيين المباشرين بمخرجات الدرس الشعبي بل والمصدر الأول المنتج للمادة الخام التي تملأ هذه الأوعية غير التقليدية. وتعد مثل هذه الدراسة بمثابة محاولة للمشاركة في إعادة الاعتبار لهذه المصادر المعرفية الدالة على طبيعة الوعي العربي في البعدين السياسي والاجتماعي.

ولعل إمعان النظر في بعض الظواهر دون إهمال الزاوية المتعلقة بهذه الأوعية قد يؤدي إلى نتائج مهمة على مستوى تناول بعض المشكلات الحادة[٤].

(٤) لعل النظر إلى بعض الحكايات التي يتداولها المصريون في صعيد مصر حول بعض «الإرهابيين» الذين تمت تصفيتهم في محافظات الصعيد على يد رجال الأمن في تسعينيات القرن العشرين، والتي تصور هؤلاء «الإرهابيين» باعتبارهم أبطالا، تشير مثل هذه الحكايات وغيرها، إلى الخطأ البالغ الذي تمت به هذه المعالجات الأمنية التي استندت إلى تصورات سياسية أهملت الزوايا الاجتماعية والفولكلورية عند النظر إلى ملف الإرهاب. وهو ما يحتاج إلى دراسة منفصلة ليس هنا مكانها.

وفق هذا الإطار العام يحاول الباحث – في الدراسة الحالية – الاقتراب من طبيعة الوعي السياسي العربي عبر محاولة تحليل نصين شعبيين دالين على طبيعة هذا الوعي، وهما سيرة الزير سالم من ناحية وسيرة علي الزيبق من ناحية ثانية.

ولعل التساؤل الذي يطرح نفسه هو: لماذا هذان النصان تحديدًا؟ وهو التساؤل الذي يقارب هدف الدراسة في الأساس؛ إذ تعد سيرة الزير سالم من أقدم السير الشعبية العربية إن لم تكن أقدمها على الإطلاق، فيما تعد الثانية سيرة الزيبق من أحدث هذه السير أو من آخر السير التي ظلت متداولة حتى وقت قريب، حتى إن إحدى روايات هذه السيرة اشتملت على نصوص شعرية لشعراء محدثين مثل أحمد شوقي.

كان تصور الباحث المبدئي أن دراسة طبيعة الوعي السياسي والاجتماعي العربي في هاتين السيرتين هي بالأساس بحث في كيفية تطور هذا الوعي أو بالأحرى تغيره، وكذلك تغير المؤسسات السياسية والاجتماعية وبنيتها. وهو الهدف الذي كان يود الباحث لو استطاع تحقيقه. وهو ما كان يثير فضول الباحث كلما اقترب من عالم السير الشعبية العربية الرحب.. ففي الوقت الذي يمكن لقارئ السير الشعبية ملاحظة انتشار لفظ الملك لكثيرين ممن ليسوا أكثر من كبار أقوامهم يمكننا تلمس التأكيد على وصف (الملك) و(السلطان) و(الخليفة) لصالح هارون الرشيد ومن اقترب من منزلته مثل حسان التبعي في سيرة الزير، بل إن سيرة الزير تسمي حسان (الملك الأكبر) وإن انتفى وصفه بالخليفة، وهو الوصف/ الوظيفة/ الرتبة التي وصف بها هارون الرشيد، الذي وصف كذلك في سيرة الزيبق بـ(السلطان الخامس العباسي) وهو الوصف الذي ورد في سيرة الزيبق في رسالة أزدشير شاه ملك أصبهان العجم لهارون الرشيد. ومن المعروف أن هارون الرشيد هو فعلا الخليفة العباسي الخامس، بعد أبو العباس السفاح (١٣٢ – ١٣٦هـ)، وأبو جعفر المنصور (– ١٥٨هـ)، وأبو عبد الله المهدي (– ١٦٩هـ)، وأبو محمد الهادي (– ١٧٠هـ)، ثم هارون الرشيد (– ١٩٣هـ).

غير أن الباحث – ومع تقدم الدراسة شيئًا فشيئًا – لم يجد فوارق جوهرية من حيث البنية السياسية والاجتماعية في السيرتين، على الرغم من أن كلتيهما تنطلق من شروط سياسية واجتماعية مختلفة تمامًا عن الثانية، إحداهما (الزير سالم) تعبر عن مجتمع قبلي مائة في المائة، فهي صراع بين عرب الشمال وعرب الجنوب في جزئها الأول، وصراع بين عرب الشمال بعضهم البعض في جزئها الثاني، أي أنها صراع قبلي بشروطه كافة. أما السيرة الثانية (سيرة علي الزيبق) فهي تعبير كامل في

الجزء الأول منها عن صراع سياسي وأمني في مجتمع حضري بين مؤسسات الدولة الواحدة سواء بين علي الزيبق وصلاح الكلبي في مصر، أو بين علي الزيبق ودليلة المحتالة في مصر وبغداد. وفي الجزء الثاني تعبير عن صراع حضري بدوي ولكن في ظل دولة حضرية مركزية(٥).

يبدو إذن اختلاف العالمين والمجتمعين بين السيرتين محل الدراسة، وقد كان هذا الاختلاف هو الدافع وراء اختيار الباحث للسيرتين لدراسة البنية السياسية والاجتماعية فيهما، آملا العثور على تطور ما يمكن أن تفصح عنه هذه الموازنة، التي يسخر منها الباحث نفسه الآن.

لم يستطع الباحث العثور على فوارق جوهرية في زاوية الدرس كما أسلف، فكلتا السيرتين تعبران عن مجتمع واحد وتحملان بنية مفاهيمية متقاربة إلى حد بعيد، وقد كان هذا التشابه – وليس التطابق – مثار إرباك شديد للباحث طوال الوقت، ولم أستطع فك شفرته إلا عند دراسة الأبعاد التاريخية والجغرافية الخاصة بالسيرتين، وهو ما أشار إلى:

أولا: تنطلق كلتا السيرتين من حدث تاريخي غير متفق عليه تمامًا كما سنرى، سواء فيما يتصل بحرب البسوس (سيرة الزير سالم)، أو علي الزيبق (سيرة علي الزيبق)، لا من حيث الأحداث ولا تواريخها، ولا حتى طبيعة وانتماء الأشخاص الفاعلة فيها. أقصد على المستوى التاريخي. وقد يكون هذا الارتباك التاريخي في السيرتين حالة نموذجية لتعاطي المبدع الشعبي معها وبناء سيرة.

ثانيًا: لو اعتمدنا آخر التواريخ المتاحة في السيرتين، فنحن أمام روايات تاريخية تتحرك في المجتمع العربي وتتجادل منذ القرن التاسع الهجري، وأمام نصوص وروايات أدبية شعبية منذ هذا التاريخ تقريبا. أي أن هاتين الروايتين استمرتا في الوجدان العربي في تفاعل معه عند مروره بأزماته منذ نحو سبعة قرون، ومن المعروف أن «قصص البطولات الكبيرة التي سجلتها السير الشعبية العربية بصفة عامة، تتكون أصلا من روايات متعددة تظل تروى حول بطل بعينه أو مجموعة من الأبطال الذين يستدعيهم الوعي الشعبي في الأزمات السياسية التي تمارس فيها السلطة عملية القهر الجماعي ضد

(٥) يهتم الباحث هنا بالإشارة إلى أن هذا ليس الاختلاف الوحيد بين السيرتين، غير أنه الجانب الأهم في الاختلاف وفق هذا السياق من حيث البنية السياسية والاجتماعية. لكن هناك اختلافات جوهرية أخرى بين السيرتين، أهمها اعتماد سيرة الزير في رسم شخوصها الأساسية على القوة الجسدية، مع عدم إغفال القدرات الأخرى. واعتماد سيرة علي الزيبق على القدرات العقلية والمعرفية (الحيلة) مع عدم إغفال القدرات الأخرى أيضًا.

الشعب. فالأزمات السياسية التي كانت تمر بها الشعوب العربية، كانت تقدم الزاد الخصب لنمو هذه الروايات ثم تلاحمها فيما بعد لتكون عملا قصصيا كبيرًا»[٦].

ثالثًا: اكتملت مثل هذه الروايات أدبيًا أو كادت منذ نحو مائتي سنة، وطبعت طبعتها «المميتة» – حسب تعبير الباحث، أو المجمِّدة – حسب تعبير الدكتور أحمد شمس الدين الحجاجي، منذ نحو قرن.

رابعًا: الملاحظة الأكثر أهمية، أن هاتين السيرتين اللتين طبعتا معًا منذ قرن تقريبًا طبعتا فيما يبدو من روايات شفاهية هي بنت الفترة نفسها، مما يجعل الشروط الموضوعية – سياسيًا واجتماعيًا – لرواية وتدوين وطباعة السيرتين واحدة، رغم اختلاف المنطلق التاريخي الأول للحدث (المضطرب) نفسه. وهذا التشاكل مرة أخرى يثبت مدى تأثير تاريخ الرواية/ التدوين/ الطبع على الرواية، أكثر بكثير من تأثير الحدث الفعلي الذي تحكيه الرواية. ولعل في الرواية الميدانية التي جمعها الباحث من محافظة الفيوم عام ٢٠٠٥، لسيرة الزير سالم، تؤكد ما ذهب إليه الباحث من غلبة تاريخ التدوين، ليس فقط في التعبير عن البنيات الناظمة للمجتمع كما في حال النصين المطبوعين اللذين اعتمدت عليهما الدراسة، بل في كل التفاصيل كما في رواية الفيوم المشار إليها؛ فالزير سالم في هذه الرواية صاحب خمارة في الفيوم (مركز المحافظة)، كما أن عالم السيرة فيه حرفة النجار، وفيه ساقية (معروف مدى الترابط بين الفيوم والسواقي)، كما أن حكمون ملك بيروت في السيرة المطبوعة، هو صاحب أبعدية في رواية الحاج عبد الحميد من الفيوم، (وهو فلاح من منطقة الغرق في الفيوم، وهي منطقة واسعة معروفة بالملكيات الخاصة الكبيرة وانتشرت فيها قبل ١٩٥٢ الأبعديات، خاصة في قرى «الباسل»، و«البرنس»، و«البرنس الجواني»، وغيرها).

يشير ما سبق إلى أن الباحث وهو ذاهب لتأكيد الاختلاف/ التغير/ التطور، وجد نفسه يثبت التشاكل والتشابه.

غير أن هذا التشاكل الجوهري، لم يكن مانعًا من الاختلافات المهمة أحيانًا، وربما كان العثور على الاختلاف عند النظر للسيرتين وفق مقولة «الحفريات المعرفية» لميشيل فوكو.

---

(٦) علي محمد برهانة (إعداد): سيرة بني هلال.. ظاهرة أدبية.. دراسة أدبية لغوية مقارنة. من تقديم: الأستاذة الدكتورة نبيلة إبراهيم. منشورات كلية الآداب والتربية بجامعة سبها. ١٩٩٤. مقدمة الدكتورة نبيلة إبراهيم: ص (ج).

وعلى الرغم من الاختلاف بين هارون الرشيد وحسان التبعي فقد جعل لهما راوي السيرة ديوانا للملك وحجابا لهذا الديوان مع الاهتمام بتفاصيل إدارية ووظيفية لديوان هارون على حساب ديوان حسان، وإن انتشرت الملامح الأسطورية في ديوان حسان عنها في ديوان هارون.

ورغم وجود قليل من الاختلاف بين السيرتين، فهناك ثبات في كثير من القيم والمعتقدات والعادات الاجتماعية، ومن أبرزها عادة الثأر، تلك العادة المصرية والعربية المتجذرة في المجتمعات الريفية والتي تنتشر كذلك في محافظات الصعيد.

ورد ذكر (الثأر) في سيرة الزير باعتباره المحرك الأساسي للأحداث. وكذلك في سيرة علي الزيبق. ففي سيرة الزير يريد عرب بني قيس الثأر من الملك حسان. ثم يحيا الزير سالم حياته كلها رهن نذر ثأري لأخيه كليب من أبناء عمومته، وعلى رأسهم جساس. وفي سيرة علي الزيبق تتجسد أول وأهم إرادة لعلي الزيبق في الثأر لأبيه من صلاح الكلبي.

بل إن سيرة الزير سالم تستعرض ما سمته «ثأر الحمار» الذي ورد ذكره على لسان الزير سالم نفسه عندما قتل الأسد الذي افترس حماره، ثم قال: «الله أكبر فقد أخذنا بثأر الحمار». وهو ما يشير إلى مدى تجذر عادة الثأر في المجتمعات العربية. وفي ثأر الحمار هذا بنى المهلهل قصره في بئر السباع من رؤوس السباع التي قتلها ثأرا لحماره. وقد ذكر هذا عندما ذهب كليب يخبر أخاه المهلهل بأن بني مرة سيغيرون عليه، فقال له المهلهل: «كن في أمان واطمئنان من نوائب الزمان فإن كنت بثأر الحمار الذي ليس له قدر ولا مقدار بنيت قصرا من رؤوس السباع ألا أبني رؤوس الأعادي مداين وضياع وحصون وقلاع فاذهب بالسلام ولا ترتاع».

وفي سيرة علي الزيبق نجد علي الزيبق الذي يصارع صلاح الكلبي كي يأخذ ثأره منه في مقتل أبيه حسن رأس الغول. وبعد أن قتل صلاح الكلبي خال علي الزيبق في كمين (حلة الزفت) الذي دبره

صلاح الكلبي لعلي الزيبق، كتب علي الزيبق لصلاح رسالة تهديد جاء فيها: «والآن لي عليك ترين (ثأرين) يا صلاح ولا بد عن قتلك».

تساؤلات الدراسة

تطرح هذه الدراسة سؤالا محوريًا، وهو:

كيف تتعامل المجتمعات العربية مع السلطات الحاكمة للمجتمع بشكل عام سواء كانت هذه السلطات سياسية أم اجتماعية؟

وعن هذا التساؤل الكبير تتولد تساؤلات فرعية، أهمها:

– إلى أي مدى يمكن أن تكون سيرة الزير سالم وسيرة علي الزيبق معبرتين عن المجتمعات العربية بأنظمتها المختلفة؟

– وإلى أي حد عبرت السيرتان عن البنية السياسية والاجتماعية من عدمه.. وهو التساؤل الذي يتمم مع سابقة درجة الأمان العلمي للمصادر التي تعتمد عليها الدراسة في الوصول إلى نتائج.

الإطار الميداني

وفق الإطار العام للدراسة التي تبتغي البحث عن طبيعة الوعي بالمنظومتين السياسية والاجتماعية من خلال أوعية غير تقليدية للفكر السياسي العربي (السير الشعبية)، يصبح الإطار الميداني في حاجة إلى أقصى اتساع ممكن. مع إدراك صعوبة الحصول على نص شعبي شفاهي كامل.

فهو أمر يصعب التعويل عليه، فغاية الأمر أنه يمكن الحصول على شظايا سيرة أو بعض النوادر المتصلة بهما مدونة أو شفاهية.

كان هذا هو التصور المبدئي للباحث، وهو ما تحقق إلى حد ما، فغاية ما استطاع الباحث الحصول عليه رواية شعبية من محافظة الفيوم لسيرة الزير سالم، لم تتجاوز مدة التسجيل ٣٠ دقيقة. وكان الراوي أحد كبار السن (٧١ سنة) في منطقة الغرق بمحافظة الفيوم. وقد قام الباحث بتفريغ الرواية وتدوينها طبقًا للمنطوق، وذيلت بها هذه الدراسة.

الإطار المنهجي

تكمن مشكلة مثل هذه الدراسات في هذا التنوع الشديد الذي يكتنف طبيعتها، ففي الوقت الذي يمكن فيه النظر إلى المادة المصدرية المدروسة باعتبارها أدبًا، يمكن أيضًا وبالدرجة نفسها النظر إليها باعتبارها مصادر سياسية، واجتماعية، فيما تنتمي من جانب إلى التاريخ ومن جانب إلى الفولكلور.

ويعد هذا التنوع الذي عبر عنه الباحث في بداية التقديم بأنه يؤدي إلى دراسة متجاذبة الاختصاص، يؤدي في جانب آخر إلى ضرورة استخدام منهج علمي محدد، مع الإفادة من بعض الإجراءات المنهجية المتنوعة حتى يمكن استنطاق مادة مصدرية بهذا الثراء.

ولعل هذا المشكل المنهجي هو ما دفع إلى الاطمئنان منهجيًا إلى القراءة الثقافية وفق منهج النقد الثقافي Culture Criticism، إذ إنها أكثر القراءات المنهجية استيعابًا للأبعاد السياسية والاجتماعية والتاريخية والأدبية والفولكلورية كافة. كما أن الباحث كان يحتاج من آن لآخر إلى أدوات منهجية مختلفة لإمكانية التعاطي مع مادة مصدرية مختلفة أو – وهو ما استقر عليه رأي الدارس – الركون إلى أدوات منهجية مرنة يمكن من خلالها دراسة مادة مصدرية متنوعة مثل سيرة الزير سالم وسيرة علي الزيبق.

بالإضافة إلى ما سبق توجد مجموعة من الإجراءات المنهجية المهمة التي ستلجأ إليها الدراسة، ومن أهمها: حاجة هذه الأوعية غير التقليدية إلى امتلاك إجراءات منهجية تنتمي إلى علم الفولكلور

وبخاصة الأدب الشعبي وأحيانا علم الاجتماع. كما يحتاج سبر أغوار هذه المواد أو المصادر إلى أدوات منهجية للنقد الأدبي خاصة ما يسمى «النقد الثقافي».

أخيرًا:

إن أحسنت فالحمد لله، وإن أسأت فالله أسأل التسديد والرشاد.